النشاط النفسي على المرأة الجزائرية
خلال حرب التحرير الجزائرية
1962 – 1954 *

بن دارة محمد

جامعة أدرار

Résumé:

Durant la guerre de libération algérienne, le 5ème Bureau de l'Armée Française, et dans le cadre de sa mission d'action et de guerre psychologique contre la révolution algérienne, se voit confier la mission de mener une action psychologique sur la femme algérienne vivant dans la compagne, dans le cadre de ce qu'il appelle la « reconquête » et la « prise en main de la population musulmane ». Dans cet objectif de guerre, le 5ème Bureau avait établi un vaste plan tactique pour atteindre la femme algérienne qui l'a mit en application sur le terrain dès 1957. La femme algérienne, qui était jusqu'au là délaissée et abandonnée sur tous les plans, politique, sociale et économique, se voit sollicitée par une vaste compagne prétendant venir l'aider pour s'occuper d'elle et améliorer sa condition humaine et sociale et œuvrer pour son "émancipation". Mais ces objectifs déclarés cachent d'autres occultes, il s'agit belle et bien de toucher une dimension très sensible de la société algérienne qui pourra un jour renverser les rapports de forces et donner victoire à celui qui l'aurait gagné à son côté. Connaître la tactique suivie ainsi que les méthodes employées et les moyens utilisés pour la réalisation de tel objectif est l'objet de cet article.

الملخص:

خلال حرب التحرير أسند للمكتب الخامس للجيش الفرنسي، في إطار مهامه المتعلقة بنشاط الحرب النفسية، مهمة القيام بتطبيق نشاط نفسي مركّز على المرأة الجزائرية للتأثير عليها وضرب الثورة الجزائرية بها. الغاية النهائية من النشاط النفسي للمكتب تتمثل في بلوغ شريحة عريضة تُمثل نصف المجتمع الجزائري، وذلك للاستحواذ عليها وتسخيرها لخدمة مخططاته لضرب الثورة الجزائرية، والتي يمكن أن نعد من بينها " كسب " صوتها إلى جانبه في استفتاء محتمل قد يتم تنظيمه يوما ما لوضع نهاية للحرب في الجزائر. فما هي الاستراتيجية التي اعتمدها المكتب الخامس لتحقيق أهدافه في المرأة الجزائرية ؟ وما هي وسائله ؟ وما هي النتائج التي حققها في ذلك ؟

مقدمة:

خلال حرب التحرير الجزائرية، أسند للمكتب الخامس للجيش الفرنسي، في إطار مهمته المتمثلة في شن حرب نفسية على الثورة الجزائرية، مهمة تطبيق نشاط نفسي مكثف على المرأة الجزائرية بالأرياف وذلك بهدف استمالتها وكسبها إلى صف فرنسا ثم استغلالها لضرب الثورة بها. وهذا من خلال التأثير الذي يمكن لها أن تمارسه في وسطها ومن خلال الوزن العددي الذي يمثلها صوتها كمنتخبة في الاستحقاقات الانتخابية. فهي نصف المجتمع وبالتالي يمكنها أن ترجح الكفة إلى هذا الطرف أو ذاك.

و تنفيذا لهذه المهمة قام المكتب الخامس بضبط مخطط واسع لبلوغ المرأة الجزائرية، سخر لتنفيذه امكانيات هائلة وتولت تطبيقه الفرق الطبية الاجتماعية المتنقلة وحلقات الدوائر النسوية، التي كانت تخلط ما تسميه "بالتربية" بنشاط دعائي واستعلامي هدام ضد الثورة. وهكذا، وبعد أن ضلت المرأة الجزائرية بالريف ردحا طويلا بعيدة عن كل اهتمام من الإدارة

الاستعمارية أصبحت محل اهتمام زائد في نفسها وبيتها بدعوى تحسين أوضاعها الاجتماعية والأخذ بيدها نحو " التطور" و" التحرر". وسنتناول في المقال التالي المخطط الذي اعتمده المكتب الخامس في تطبيق نشاطه النفسي والدعائي على المرأة الجزائرية والوسائل التي وظفها لإنجاحه.

المطلب الأول: المنطلقات المبدئية للنشاط النفسي على المرأة الجزائرية

يندرج النشاط النفسي على المرأة الجزائرية ضمن النشاط النفسي على الشعب الجزائري ككل. ولأن المرأة الجزائرية تمثل نصف المجتمع الجزائري، ولأنها عامل سلم واستقرار فيه، فإنه من شأن استهدافها بنشاط نفسي مُركز أن يتم تحقيق أهداف تخدم في نتائجها أهداف حرب «التهدئة» ككل، التي ستتعدى آثارها الإطار الوحيد للمرأة الجزائرية. ومن ثمة، فإن النشاط النفسي الذي كان يتم تسليطه على المرأة الجزائرية، ما هو إلا جبهة من جبهات النزال، فتحها الفرنسيون ضد الثورة لكسب ما يسمونه بمعركة " النفوذ على السكان ".

تتمثل الخلفيات الكامنة وراء اتخاذ الفرنسيين المرأة الجزائرية ميدانا للنزال مع الثورة في أن الحل الأخير للمشكل الجزائري لن يكون عسكريا بحتا، بل سيكون سياسيا أيضا وبواسطة الصناديق يوما ما. وأن خير وسيلة للاستعداد لهذا اليوم ستكون بالشروع في التحضير له من الآن (1957)، بإعداد النفوس وتهيئتها لكسب أصواتها في ذلك اليوم المشهود، يوم الاستفتاء، الذي قد يكون حلا يتم اللجوء إليه لتقرير مصير الشعب الجزائري. ومن يقل السكان فهو يقل أيضا وبالضرورة المرأة، التي تمثل نصف المجتمع: « إن الوسيلة الأضمن للتحضير للانتخابات هي البدء في إعداد وتحضير النفوس لها من الآن. وهذا الإعداد والتحضير للنفوس لن يتحقق إلا إذا توفّرنا على فكرة ثورية بسيطة، تتمثل في أمرين هما: الأول هو تحرير الجماهير من

الأحكام المسبقة ومن أوضاع البؤس؛ والثاني العمل على تحرر المرأة »[1].
وهذا "البرنامج" هو – بزعم الفرنسيين– أمر ينطوي على تحد ثوري كبير لا يمكن للثورة، على ثوريتها، تبنيه ولا رفعه. فالثورة هي، بالنسبة لهم، مجموعة من العناصر البرجوازية التي لا رابط يربطها بالفئات الكادحة، التي لن تقدم لها الثورة شيئا. وهو الموقف نفسه بالنسبة للمرأة، التي –بزعمهم– لن تقدم الثورة لها شيئا يذكر، « لأنها قد رهنت سلفا كل مبادرة من جانبها في هذا الاتجاه، وبالأخص بعد أن أصبحت صفوفها مثخنة بأعداد الوافدين من جمعية العلماء المسلمين، التي لن تساير أبدا الثورة في مسعى تحرير المرأة » [2].

و من هنا، فإن المرأة الجزائرية هي، بالنسبة للفرنسيين، ميدان سجال سهل مع الثورة، حيث يمكنهم وبكل سهولة أخذ زمام المبادرة وتسجيل العديد من النجاحات ضدها، وكسب المرأة الجزائرية إلى صفهم، وبالأخص أن هذه المرأة لم تعُد بمنأى عن مؤثرات حركات التحرر النسوية التي مست العديد من الأقطار العربية والإسلامية. كما أن الواقع المزري والمعاناة اللذان تعيشانهما هذه المرأة كفيلان لوحدهما بجعلها أكثر حساسية وتطلّعا إلى « التحرر» من غيرها. لذلك، كانت أولى المهام المناطة بالنشاط النفسي المطبق على المرأة الجزائرية، هو خلق وشحذ وتعميق "الرغبة في التحرر" لديها، ليتم بعد ذلك استغلال هذه الرغبة وتحويلها إلى أداة تُسخر في خدمة أهداف الحرب النفسية. وذلك وفقا للإطار العام الذي حددته توجيهات الوزير المقيم روبرت لاكوست المتضمَنة في تعليمته رقم: 04 بتاريخ 3 أفريل 1957، التي جاء فيها: « إننا نعتزم فعلا، خلال السنوات القادمة، وبالتدرج، مساعدة الجماهير الغارقة في

(1) - SHAT, 1H 2536/d.1, Constitution d'une organisation politique de base, (s. d.), p. 2.

(2) - SHAT, 1H 2536/d.1, Constitution d'une organisation politique de base, (s. d.), p. 2 ; SHAT, 1H 2536/d.1, Conditions générales de l'Opération "Pilote", 24 Février 1957, p. 1.

الجهل والتي تعيش على هامش محاسن الحضارة الحديثة، على التحرر من أفكار التخلف ومعيقات البؤس. بما يساعد شيئا فشيئا على خلق جو يشجع الشريحة النسوية على القيام بنفسها بالمطالبة بالتغييرات التي تفرضانها الحياة العصرية ودواعي التحرر. لذلك سيكون من الأنسب العمل مند الآن على شيوع مثل هذا الجو. وفي هذا الصدد قمت حاليا بطلب القيام بدراسة الامكانيات المتاحة، على المستوى القانوني، لإجراء تعديل في الوضعية القانونية للمرأة المسلمة » [1]. وهو الأمر الذي يستفاد منه شيئان:

– **الأول:** ضرورة العمل على خلق وبروز نواة لـ " حركة نسوية جزائرية " تنبثق من الوسط النسائي الجزائري، تحمل على عاتقها المطالبة والدفاع عن حقوق المرأة الجزائرية، وذلك من خلال العمل على « تحسيس النساء الجزائريات بسوء أوضاعهن وجعلهن يكتشفن الطريق التي يجب عليهن سلكها مع فرنسا للوصول إلى التحرر» [2]. وهو أمر حيوي وشرط أساسي، يتوقف عليه كل ما يمكن اتخاذه لاحقا من مبادرات سياسية في مجال «تحرر» المرأة الجزائرية، لأن: « وزير الجزائر لا يمكنه اتخاذ أي قرار خاص بتحرر المرأة، ما لم تقم المرأة الجزائرية بالتعبير صراحة عن هذه الرغبة » [3]. وهي المهمة التي تم إسنادها إلى الفرق الطبية–الاجتماعية المتنقلة وحركة الدوائر النسوية.

– **الثاني** أن التشريع بمختلف النصوص القانونية هو أيضا وسيلة ستوظف في خدمة الحرب النفسية. وهو ما لجأت إليه فعلا فرنسا عندما

([1]) - Service de l'Information du Cabinet du Ministre de l'Algérie, Action du Gouvernement en Algérie: Mesures de pacification et réformes, op. cit., p. 139.

([2]) - SHAT, 1H 2533/d.2, Note à l'attention de MM. les Officiers Itinérants au sujet de la réunion du 8 Janvier 1958, (1958), p. 3.

([3]) - نفسه، ص. 4.

استصدرت عدد من النصوص القانونية لـ «التعديل» من الوضع القانوني للمرأة الجزائرية داخل مجتمعها، والتي كان أهمها الأمر رقم 274-59 بتاريخ 4 فيفري 1959 المتعلق بتنظيم الزواج المتعاقد عليه بالجزائر والعمالتين الصحراويتين، بين الأشخاص الخاضعين للنظام المحلي. حيث حددت أحكام هذا الأمر السن القانونية للزواج بثمانية عشر سنة للرجل وخمسة عشر سنة للمرأة؛ وأن الزواج يتم بناء على رضا الطرفين وأن الطلاق لا يقع إلا بحكم صادر عن المحكمة [1]. وهو النص الذي اعتبر ثورةً في زمانه، فتضاربت حوله الآراء والانطباعات بين مختلف فئات السكان. علما، أن الأهداف المسطرة في مجال تغيير الوضع القانوني للمرأة الجزائرية كانت تنشد الوصول بهذه الأخيرة إلى وضع مماثل للذي أصبحت عليه أختها التونسية ابتداء من جانفي 1957، وهو تاريخ اعتماد قانون الأسرة التونسي. بكل ما يعنيه ذلك من إلغاءٍ لبعض الممارسات والاجتماعية كتعدد الزوجات، التطليق (la répudiation) وحق الجبر، أي حق الوالد في إجبار ابنته البكر على الزواج. وهو ما كان يقتضي لتحقيقه أن يوجد ابتداء في الجزائر «حركة نسوية فاعلة مدعومة برأي عام عصري ونافذ » [2]، ليتسنى بهما الانتصار على المعارضين من « التقليديين والعلماء الإصلاحيين » [3]. أما في مجال الحقوق السياسية فقد شهدت سنة 1958 الاعتراف بحق المرأة الجزائرية في التصويت.

و في هذا الاتجاه أيضا، يمكن أن نعد ما اتخذته السلطات الفرنسية من إجراءات وتدابير اجتماعية، التي وإن كانت تهدف إلى إحداث تغيير في

([1]) - Journal Officiel de la République Française, n° 35, du 11 Février 1959, p. 1860.
([2]) - SHAT, 1H 2460/d.1, Introduction à une étude sur l'intégration, suivi de quelques aperçus juridiques et sociologique sur les concepts d'assimilation et intégration , (Mai 1958 ?).
([3]). نفسه -

وضعية المرأة الجزائرية لمنحها مكانة أكبر في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، فإنها كانت ترمي أيضا إلى خدمة أهداف الحرب النفسية من خلال تسريع مسار « تحرر » المرأة الجزائرية. لأن وضعها السائد آنذاك كان لا يخدم هاته الأهداف، مثلما أسفرت عنه نتائج بحث ميداني قام به ضباط مكاتب لاصاص بالتعاون مع السلطات المحلية الاستعمارية خلال السداسي الأول لسنة 1959، حيث كشفت نتائج هذا البحث عن عظم التأخر المسجل في هذا الميدان: « فالخلية الأسرية الجزائرية تكاد لم تتطور والوصاية الأبوية على البِكر وتعدد الزوجات هي ممارسات عامة وشائعة، مما يجعل المرأة في وضعية متدنية، على الأقل فيما يخص المشاركة في الحياة العامة، كما توضحه بعض الأرقام: فالتمدرس بالنسبة للفتيات الجزائريات ينحصر غالبا ما بين 20 و25%، في حين لا يزيد عدد الجزائريات المسجلات في الجامعة على الستين. وإذا استثنينا النساء العاملات بالقطاع الزراعي، فإن اليد العاملة النسوية بالقطاعات الأخرى لا تزيد عن 31.000 عاملة، منهن 25.000 عاملة تعملن كخادمات في البيوت، وهو أقل قليلا من ثلث اليد العاملة النسوية » [1].

و هذا الواقع، وإن كان صحيحا فهو ينطوي بدوره على مغالطة متمكنة في الأذهان تجعل من المرأة الجزائرية امرأة مغلوبة على أمرها عديمة التأثير والنفوذ في وسطها ولا قدرة لها على التطور، وهو أمر ليس بالصحيح: « لقد اعتبر الوسط النسائي الجزائري ولمدة طويلة بأنه عديم النفوذ وليست له القدرة على التطور. ولكن الواقع هو شيء أخر تماما، فالمرأة تلعب دورا مهما في الخلية الوحيدة التي تتقلب فيها، آلا وهي الأسرة. [.....] كما أن ما يُعرف عن الخضوع المطلق للزوجة لزوجها ما هو إلا أحجية يستظهر بها

([1]) - Délégation Générale du Gouvernement en Algérie, Rapport sur l'activité de l'administration en Algérie au cours de l'année 1959, Alger, Baconnier, 1960, p. 107.

للغرباء عن الأسرة. ففي أغلب الحالات تحظى الزوجات والأمهات بالاحترام والطاعة، وتتربع العجائز في شكل حاكمات مطلقات في تسيير البيت. وبكلمة: تتوفر المرأة الجزائرية على نفوذ حقيقي بحلقتها العائلية. وهذا النفوذ، هو الذي يجب مده وتوسيعه إلى إطار اجتماعي أكبر بإعطاء المرأة مكانتها الحقيقية في المجتمع، كشريكة للرجل وكمربية للأطفال وكمواطنة بالمعنى الأتم للكلمة » [1].

لا شك أن مثل هذا الكلام هو كلام جميل يستهوي العقول ولا يسع العاقل إلا اقراره والثناء عليه، وإن كان صدوره عن فرنسا ليبعث الشك في صدق بواعثه ويقدح في دوافعه: فأنى لفرنسا الاهتمام بالمرأة الجزائرية كل هذا الاهتمام بعد عقود من الظلم والاهانة والتجهيل ؟ وأنى لها أن تدافع عنها وتعمل على تحررها في هذا الظرف بالذات ؟ وهل يمكن تصور تحرر للمرأة الجزائرية ضمن مجتمع مستعبد ؟ وهل يمكن فصل تحررها عن تحرره ؟ لا شك أن نيات فرنسا غير نزيهة: إن فرنسا تسيء طرح الموضوع، إنها تحاول شغل المرأة الجزائرية بالمهم دون الأهم، إنها تحاول صرفها عن معركتها الحقيقية المتمثلة في تحرير وطنها إلى معارك ثانوية، في حين أنه لا معنى عندئذ لحريتها إذا بقي وطنها مستعبد !

المطلب الثاني: هيئات النشاط النفسي على المرأة الجزائرية

اضطلعت بالنشاط النفسي على المرأة الجزائرية هيئات عديدة، منها:

أ- المراكز الاجتماعية التربوية (Les Centres sociaux éducatifs): وهي عبارة عن مراكز اجتماعية تربوية وتكوينية متعددة الأنشطة، حيث تتمثل مهمتها في إعطاء تربية قاعدية لكل عناصر السكان من الجنسين ومن مختلف

(1) - SHAT, 1H 2461/d.1, Action sur les milieux féminins en Algérie, Approuvé par le Général d'Armée Aérienne M. CHALLE Commandant en Chef les Forces en Algérie, le 27 mars 1960, p. 7.

الأعمار والفئات، من الذين لم يستفيدوا أو لن يستفيدوا من التعليم. وهي لذلك تجمع بين أنشطة متعددة: كمحو الأمية والتعليم الشعبي، التربية الرياضية والتربية المدنية، وبالأخص التركيز على ما قبل التكوين الحرفي (la préformation) الريفي والتقليدي. وقد كانت الطاقة الاستيعابية لكل مركز تقدر بـ 135 طفل، منهم 70 إناث و65 ذكور. علما أن إنشاء هذه المراكز غالبا ما اقتصر على المدن، بالضواحي، حيث كان عددها بنهاية 1959 ثلاث وستون مركزا وكان من المقرر أن يصل عددها إلى 700 مركز بحلول سنة 1966 [1]. أما بالنسبة للنشاط النفسي الذي تمارسه هذه المراكز على المرأة الجزائرية وعلى السكان فيمكن تصوره من خلال مختلف الأنشطة الاجتماعية الرامية إلى تحسيس المرأة بوضعها الراهن وجعلها تصبو وتتطلع ثم تطالب بوضع أحسن منه.

ب- النساء الملحقات بالشؤون الجزائرية (Attachées Féminines des Affaires Algériennes) وهو سلك تابع للقسمات الإدارية المختصة.

ج- منشطات مصالح تكوين الشباب بالجزائر (Monitrices du Service de Formation des Jeunes en Algérie) وهن منشطات كان يتم تكوينهن لمدة ستة أشهر بمدينة نانت الفرنسية (Nantes)، ليعهد لهن بعد ذلك بمهمة تأطير الفتيات اللاتي تجاوزن سن التمدرس والمترددات على الشعب النسوية بنوادي الشباب، لإعطائهن تكوينا متنوعا، يجمع بين التربية البدنية والمدنية ودروسا في التدبير المنزلي.

د- حركة التضامن النسوية (Mouvement de Solidarité Féminine) وهي حركة جمعوية مستقلة عن الدولة الفرنسية ولكنها تساهم في تحقيق أهداف

([1]) - Délégation Générale du Gouvernement en Algérie, Rapport sur l'activité de l'administration en Algérie au cours de l'année 1959, Alger, Baconnier, 1960, p. 106- 109.

«حرب التهدئة». وهي تضطلع بدور مواز ومكمل لدور الفرق الطبية الاجتماعية المتنقلة، حيث تعمل على تأطير المرأة الجزائرية ضمن شبكة من " الدوائر النسوية" (Cercles féminins) التي تنشط في الأرياف وأيضا في الأحياء الشعبية في المدن، وتعقد اجتماعات أسبوعية من أجل التقريب بين عنصريْ السكان، وكان يُعوّل علي هذه الدوائر كي تصبح واحدا من محركات « الجزائر الفرنسية الجديدة».

هـ- الفرق الطبية-الاجتماعية المتنقلة (Équipes médico-sociales itinérantes): وسنفردها بتناول خاص

المطلب الثالث: عيّنة على النشاط النفسي على المرأة الجزائرية بالريف:

نشاط الفرق الطبية الاجتماعية المتنقلة

وهي فرق تخضع للإشراف المباشر للمكتب الخامس، وتتكون من طبيب تساعده مساعدة أوروبية ومساعدتين جزائريتين يعرفن بـ: (Les A.S.S.R.A.) [1]، وهن عاملات وضعتهن المديرية العامة للنشاط الاجتماعي للحكومة العامة تحت تصرف الجيش ومنها يتلقين أجورهن. وهذه الفرق هي وسيلة حقيقية من وسائل «حرب التهدئة» في مستوى فرق الدفاع الذاتي ونوادي الشباب وجمعيات قدماء المحاربين والعسكريين [2]. وهي أيضا وسائل تكتيكية بكل ما في الكلمة من معنى، لأنه كان يتم توظيفها في نفس الوقت مع الوسائل التكتيكية الأخرى التي تعمل في الميدان ضمن خطة استراتيجية شاملة.

مجال عمل هذه الفرق هو الريف الجزائري، حيث كانت هذه الفرق تجوب الدواوير والدُشُر مقتفية خطى الجيش الفرنسي الذي كان يكسّر ويدمّر، فكانت هاته الفرق تزور السكان بأكواخهم متخذة المساعدة الطبية والاجتماعية

(1) - Adjointes Sociales Sanitaires Rurales Auxiliaires.
(2) - SHAT, 1H 2461/d.1, Action sur les milieux féminins en Algérie, op. cit., p.1.

وسيلة لبلوغ المرأة الجزائرية، المنهكة والمحطمة من عمليات التمشيط. فكانت هذه الفرق تخلط لها المساعدة الطبية والاجتماعية بعمل دعائي نفسي واستعلامي كبير ضد الثورة.

تتمثل المهام المسندة لهذه الفرق، كما حددتها التعليمة الخاصة بالنشاط على الوسط النسوي الجزائري، في: « بعث الاتصال بالمرأة الجزائرية لمعرفتها وإعلامها، تربيتها وتنظيمها ثم توجيهها، لجعلها تتبنى ثم تعيش فعليا الحل الفرنسي الأمثل للمشكل الجزائري. [...] وتعريفها، من خلال شواهد ملموسة، بالمستقبل العصري الذي تقترحه لها فرنسا » [1]. كما تتمثل مهمة هذه الفرق في ضمان المساعدة الطبية والاجتماعية للسكان وبعث الاتصال مع الجماهير النسوية والكشف عن اتجاهات الرأي السائدة فيها وإخطار السلطات المعنية بها، ثم نشر وشرح تعليمات الوزير المقيم. حيث يبقى الهدف البعيد من وراء ذلك هو التمهيد لظهور حركة تحرر نسوية لـ « تحرير» المرأة الجزائرية [2].

و من هنا، فإن المساعدة الطبية المجانية المقدمة إلى السكان ما هي إلا وسيلة في خدمة غاية وليست غاية في حد ذاتها. « فالطابع الطبي والاجتماعي لهذه الفرق ما هو إلا وسيلة لتحقيق غاية تتمثل في تقديم تربية قاعدية للوسط النسوي. لذلك، فإن الخطأ الجسيم الذي يجب تفاديه، هو التساهل بترك هذه الفرق تنغمس كلية في عملها الطبي والاجتماعي على حساب دورها الحقيقي » [3]. ذلك أن الاقتصار والتركيز في عمل هاته الفرق على التخفيف من المعانات الصحية للمرأة الجزائرية له أثر عرضي مؤقت، من

([1]) - نفسه.

([2]) - SHAT, 1H 2468/d.1, Note pour l'emploi des Équipes Médico- Sociales Itinérantes, Alger, 24 Novembre 1957.

([3]) - SHAT, 1H 2461/d.1, Action sur les milieux féminins en Algérie, op. cit., p.1.

شأنه إذا اعتمد كهدف وحيد أن « أن يترك الجماهير النسوية على حالها من الميل الطبيعي إلى السلبية، ويحرمها طعم الجهد والكد والحركية الاجتماعية » [1].

أما بالنسبة لـ «التربية القاعدية » التي تقدمها هاته الفرق للجماهير النسوية، فأساسها « إعلام عام يتم تقديمه خلال أوقات الاستراحة الطبيعي والاجتماعي »، وهي «التربية» التي كان يتم مواصلة تقديمها ضمن إطار «الدوائر النسوية » التي كان يتم انشاؤها بمجرد التعرف على الوسط النسوي وتوفير أحسن الظروف لنجاح الدائرة النسوية. ليتوّج هذا الجهد يوما بتكوين عدد من المنشطات المحليات، اللاتي كُن يُخترن لما لهن من استعدادات ذاتية ولما يتمتعن به من شخصية ونفوذ ووضعية اجتماعية ميسورة، ليُعهد لهن في المستقبل باستخلاف هذه الفرق والقيام بالدور الذي كانت تضطلع به في وسطهم النسوي المعني.

في عملية توظيف هذه الفرق كان يتم الأخذ بعدد من الاعتبارات، أهمها:

1- أن توظيف هذه الفرق هو أمر تنفرد في تقريره القيادة؛

2- أن استعمال هذه الفرق لا يكون إلا ضمن وسط سكاني «محمي»؛

3- أن يُكيّف استعمال هذه الفرق مع مخطط محلي «للتهدئة»، تُوظّف فيه كل الوسائل الأخرى « لحرب التهدئة» بالمناطق التي يتم فيها تطبيق هذا المجهود؛

4- أن يراعى في توظيفها تحقيق دواعي الجدوى والفعالية التي تتحكم فيها متطلبات "العمل في العمق" [2].

([1])- المصدر لسابق.

([2]) - نفسه، ص. 2.

و نظرا لضخامة الجهد المنتظر من هذه الفرق وشساعة الفارق بين عدد عاملاتها وعدد الشريحة النسوية القابلة للمعالجة (حوالي 2 مليون امرأة ما بين 15 و35 سنة في مقابل حوالي 300 عاملة، أي بمعدل عاملة واحدة لكل سبعة آلاف امرأة) [1]، فقد كان يتم تخصيص فرقة واحدة لكل دوار أو قرية أو محتشد سكاني به ما بين 1500 إلى 3000 امرأة. هذا الوسط كان يتم تقسيمه إلى ثلاث مراكز، يخصص لكل مركز منها يوم أو يومين في الأسبوع. وبعد أربعة أو ستة أشهر من العمل في العمق، تترك الفرقة هذا الوسط إلى وسط أخر، محتفظة بزيارات أسبوعية ثم نصف شهرية، فشهرية للوسط النسوي السابق، حيث يقتصر عملها حينئذ على مجرد التوجيه والترشيد داخل المنشطات المحليات [2]. ومن هنا يمكن تصور نشاط هذه الفرق ضمن عمل مرحلي يعتمد التدرج، ويسير على النحو التالي:

ففي المرحلة الأولى يتم وضع الفرقة بالوسط السكاني المعني، الذي يتوفر على عدد من الشروط التي تجعل منه وسطا منسجما اجتماعيا واقتصاديا ولغويا وعرقيا. وهو أمر تنفرد بتقريره القيادة ويستجيب لفكرة تكتيكية ولوجيستيكية مسبقة. بعدها، وتجنبا لتميع جهد الفرقة، يتم تحديد ثلاثة مراكز ميدانية مهمة تكون مجالا لعملها، لأن تشتيت جهود الفرقة بين مراكز متعددة لن يثمر أية نتيجة. في حين أن تركيزها العمل في نقاط معينة، سيمكنها من معايشة الحياة اليومية للسكان والوقوف على مشاكلهم وتوثيق روابط الاتصال معهم بما يسهّل من مهمتها.

في المرحلة الثانية، وهي مرحلة مهمة لأنها تضع الأسس المستقبلية للتنظيم النسوي، تبدأ عملية دراسة الوسط السكاني النسوي المعني لمعرفته

([1]) - نفسه، ص. 13.

([2]) - نفسه، ص. 3.

معرفة دقيقة، حيث تمثل المساعدة الطبية والاجتماعية وسيلة مثلى تسمح لعناصر الفرقة بالتردد على النساء بالبيوت ومبررا لهاته النسوة أمام أزواجهن للتردد على مركز الفرقة. ومع الوقت يسقط المبرر وتستقر العادة ويصبح خروج النساء أمرا مألوفا. وباقتراب هذه المرحلة من نهايتها، تصبح الفرقة قادرة على تحديد الصعاب من كل نوع والتمييز بين العناصر الصديقة والعناصر المعادية، واكتشاف المنشطات المستقبليات وتطهير الجو العام المحلي.

المرحلة الثالثة وتخصص لانتقاء المنشطات المرشحات لاستخلاف الفرقة عند انتقالها إلى وسط سكاني أخر. هؤلاء المنشطات المستقبليات يتم انتقاءهن من بين المترددات اللاتي يمكن لهن، بفضل شخصيتهن ونفوذهن أو شخصية ونفوذ أزواجهن، أن يَسُدن وسطهن وأن يؤثرن فيه بالتربية التي تلقونها: « عندئذ يكون الحديث بالإعلام والتربية، ويتم فتح الآفاق لهؤلاء النسوة اللاتي لم يكن لهن غير آفاق حياتهن في البيت. ولكن يجب عمل ذلك بحيطة وحذر، والحرص دائما على ربط هذا الإعلام وهاته التربية بانشغالاتهن واحتياجاتهن وميولاتهن الطبيعية » [1].

المرحلة الرابعة وهي مرحلة إنشاء «الدائرة النسوية» التي تتخذ كنادِ لجمع النسوة وتقديم «التربية» لهن. وهذا النادي يمكن أن يكون قاعة وثيرة، كما يمكن أن يكون فناء منزل أو مدرسة، أو حتى مجرد ضلال وارفة لشجرة زيتون. فالمهم هو أن يبعث المكان «الراحة في قلوبهن ويبعث الطمأنينة في ضمائر أزواجهن، وأن يستمددن فيه تلاحمهن وقوتهن ». وفي هذه المرحلة، تكتفي الفرقة الطبية الاجتماعية المتنقلة في عملها بتوجيه مختلف الحالات الصحية إلى المصالح الطبية المختصة لتتفرغ هي كلية لمهمة «إعلام وتربية الوسط النسوي»، من خلال شغل النساء بأنشطة تعليمية مختلفة، كالخياطة والحياكة

(1) - المصدر السابق، ص. 15.

والنظافة والصحة والطبخ وغيرها من الأنشطة البيتية الأخرى التي تهم المرأة والتي تخلط بنشاط دعائي كبير ضد الثورة.

بهذا النادي، ومن بين النسوة الثلاثين أو الخمسين المترددات عليه، يتم انتقاء عدد من النساء البارزات لتشكيل فريق المسؤولات، اللاتي يُمنحن عددا من المسؤوليات (كالتكفل بنظافة شارع ما، أو الاعتناء بتمدرس الأطفال، أو المساهمة في مكافحة الرمد الحبيبي، أو بذل العون لدوي الحاجة...)، وهي المهام التي، على بساطتها، ستزيد في إعلاء شأنهن في وسطهن ونفاذ كلمتهن فيه وتكون فرصة لهن للتمرُّس على المسؤولية وتحضير أنفسهن لمسؤوليات أكثر أهمية. ومتى أصبح فريق المسؤولات هذا متمرسا في القيام بما أوكل إليه من مهام، أصبح ممكنا للفرقة الطبية–الاجتماعية المتنقلة استخلافه والعهد إليه بتنشيط الدائرة النسوية، ليتحقق ما يسميه المختصون بـ « النشاط النفسي على الوسط بالوسط»، لتنطلق الفرقة للعمل في وسط نسوي أخر، محتفظة بزيارات دورية للتفقد والتوجيه للحيلولة دون انحراف الدائرة النسوية عن مسارها الأساسي. حتى إذا كُللت جهود الفرقة بإنشاء ست أو سبع دوائر نسوية خلال بضع سداسيات أمكن القول عندئذ بأن الفرقة قد أُشبعت [1].

و على ذكر الدوائر النسوية، كنا قد أشرنا إلى الطابع الجمعوي الخاص لهذا التنظيم، حيث أن أغلب العاملات فيه هن متطوعات يعملن بإيمان على تحقيق الفكرة. وقد كانت من بين هؤلاء، السيدة تورنومين (Madame TOURNEMINE) –و هي زوجة لضابط في الجيش الفرنسي، كانت تقوم بالنشاط على الوسط النسوي لقرية هليوبوليس وقلعة بوسبع بالقرب من قالمة–، والتي تمثل تجربتها قمة ما يمكن انتظاره من ناشطة واعية بالمهمة

(1) - SHAT, 1H 2461/d.1, Action sur les milieux féminins en Algérie, p. 17.

المسندة إليها. وقد لخصت هذه السيدة تجربتها في بضع ورقات، لتتخذ "كدليل عملي حي" لترشيد نشاط العاملات في الحقل [1].

النشاط النفسي للفرق الطبية–الاجتماعية المتنقلة على المرأة الجزائرية

هو نشاط يستهدف العمق الحساس للسكان، من شأنه أن يُثير الحفائظ وأن يُؤلب المشاعر، وأن يُوجد من الخصوم بقدر ما يُوجد من الأصدقاء. لذلك كانت هذه الفرق مطالبة في سيرتها بالتزام السلوك السوي الذي لا تشوبه شائبة والتزام الاعتدال في تطبيق النشاط النفسي على المرأة الجزائرية وبالأخص عدم "حرق" المراحل واحترام عامل الزمن، فالمطلوب هو تحقيق "تطور لا ثورة" (une évolution et non pas une révolution). كما كان عليها أن تجتهد قدر الإمكان في المحافظة على الأصدقاء وعدم إثارة الخصوم إن لم نقل مهادنتهم واستمالتهم، وما أكثرهم: فهناك عموم الرجال، من الذين تجاوزوا الأربعين، من الذين يقابلون نشاط هذه الفرق تارة بعدم التفهُّم وتارة بالمعاداة؛ وهناك أيضا التقليديون، « الذين يعتقدون عن حسن نية بأنهم يدافعون عن قيم دينية وعاداتية ضد قيم لائكية منحطة »؛ ثم هناك أيضا الخاسرون الكبار في العملية « من موظفي الشَرْع الإسلامي، المهددون بفقد جزء من زبائنهم »؛ وأخيرا، هناك العجائز الماكثات في البيوت، « المهددات بانحصار نفوذهن، الذي كثيرا ما فاق نفوذ الرجال في البيت » [2]. ومع كل هؤلاء، كان يجب على هذه الفرق الطبية الاجتماعية المتنقلة العمل على كسبهم والحصول على تأييدهم ومباركتهم لنشاطها: « إن شروط النجاح تقتضي تكييف النشاط النفسي مع

([1]) - SHAT, 1H 2461/d.1, Action psychologique féminine, par Madame TOURNEMINE, Juin 1958, 8p.

([2]) - SHAT, 1H 2461/d.1, Action sur les milieux féminins en Algérie, p. 17.

ظروف الوسط المحلي، وتطبيقه بمرونة، دونما إثارة للمعتقدات، والسعي لإنجاحه بالحصول على دعم السلطات الدينية له » [1].

و لكن من بين كل الخصوم أعلاه، يبقى الخطر الحقيقي على هذه الفرق هو ذلك الذي يتهددها من قبل الثورة. فالعديد من الوثائق المسترجعة من هذه الأخيرة، كانت تعكس انزعاجا ظاهرا لمسؤوليها من النشاط المعادي لهذه الفرق وعزمهم على القيام بعمل مضاد لنشاطها. وهو الانزعاج، الذي كان مبعثا على رضى وارتياح قيادة الجيش الفرنسي، لأنها رأت فيه دليلا على صحة ونجاعة خطتها الحربية، فحازت بذلك هذه الفرق على ثناء وتشجيع قيادة الجيش في أكثر من مناسبة، لأن هذه الفرق « عرفت كيف وأين تضرب، وأن ضربتها قد أصابت الثورة في المقتل » [2]. وبالفعل، كانت هذه الفرق تضطلع بنشاط دعائي نفسي واستعلامي كبير ضد الثورة، مما يجعلها لا تقل خطورة عن الوسائل الحربية الأخرى. فقد كانت تخلط ما نقدمه من « إعلام وتربية » للنساء الجزائريات بنشاط دعائي هدام ضد الثورة، كانت تستغل فيه بؤس هؤلاء الجزائريات لتنال من معنوياتهن وتحميلهن خطابات ومضامين إلى ذويهن العاملين في الثورة، تحثهن على وقف المقاومة والاستسلام. ولاشك أن غياب الرجال، الذين كان أغلبهم في السجون والمعتقلات أو في الثورة بالجبال، قد قدم فرصة كبيرة لهذه الفرق للتسلط على المرأة الجزائرية. وعلى ذكر الثورة، نشير إلى أنه كان يتم ممارسة رقابة شديدة على الدوائر النسوية حتى لا يتم اختراقها من قبل جبهة التحرير الوطني، فتتحول الدائرة إلى خلية نسوية تعمل لصالحها

([1]) - أرشيف ولاية ورقلة، رصيد ما قبل 1962، علبة رقم 134،
Note de service: Action à mener sur les femmes musulmanes au Sahara, n° 5928 CIS/DIR/PSY, Alger, 20 Août 1958, p.1

([2]) - SHAT, 1H 2568/d.1, lettre du Colonel GOUSSAULT aux EMSI, s. p. 87.186, 11 Juin 1958 ; Lettre du Lt-Colonel FEAUGAS aux EMSI, s. p. 87.186, 20 Septembre 1958 ; SHAT, 1H 2461/d.1, Étude des "Directives F. L N. " ci-jointes, 12/2/1959, 5 p.

ومدرسة تمدُّها بالإطارات. كما كانت النساء المثقفات موضوع مراقبة مستمرة لنفس الأسباب [1].

و نظرا للنتائج المهمة التي حققتها هذه الفرق، عملت قيادة الجيش الفرنسي على تدعيمها ورفع عددها، ليصبح بنهاية أوت 1960 إحدى وسبعون ومائة – 171 فرقة، منها 63 فرقة بالغرب الجزائري، و60 فرقة بالوسط الجزائري، و48 فرقة بالشرق الجزائري. توظف كلها 315 عاملة، منها 141 عاملة جزائرية، و80 عاملة فرنسية من المتروبول، و94 أوروبية من أوروبيات الجزائر [2]. أما بالنسبة لسنة 1960 فقد طلب الجيش رفع عدد هذه الفرق إلى 325 فرقة بمجموع 1.000 عاملة، غير أنه لم يتلقى إلا 362 منصب جديد [3]. ومع إعلان وقف إطلاق النار، بتاريخ 19 مارس 1962، تقرر حل سلك الفرق الطبية–الاجتماعية المتنقلة وتحويل عاملاتها إلى المصالح العمالاتية مع البحث في امكانية مواصلة هؤلاء العاملات لنشاطهن للمساهمة في بناء جزائر الغد [4].

خاتمة:

من خلال التناول أعلاه، يظهر جليا مدى شراسة المؤامرة التي أحبكت ضد المرأة الجزائرية، ومن خلالها أيضا شراسة المؤامرة التي أحبكت

([1]) - SHAT, 1H 2533/d.2, Note à l'attention de MM. les Officiers Itinérants au sujet de la réunion du 8 Janvier 1958, p. 4.

([2]) - SHAT, 1H 2461/d.1, Action sur les milieux féminins en Algérie par les Équipes Médico- Sociales Itinérants, (présenté le 29 Août 1960 pour le Bulletin des F. O.), p. 4.

([3]) - SHAT, 1H 2568/d.1, Lettre à Monsieur le Délégué Général du Gouvernement, objet: Équipes Médico- Sociales Itinérants, (s. d.), 3 p ; Fiche à l'attention de Monsieur le Général Chef: Équipes Médico-Sociales Itinérants, Alger, 15 Février 1961, 3 p.

([4]) - SHAT, 1H 2568/d.1, Note de service: Recasement des personnels des E.M.S.I., n° 0762/CSFA/EMI/ MOR, Alger, 20 Mars 1962.

ضد الثورة الجزائرية، والتي أرادت أن تجعل من الأولى معول هدم للثانية. وهو طور غريب من الأطوار التي عرفتها حرب الجزائر الذي يضاف إلى تلك السلسلة من العمليات التي شنتها فرنسا خارج ميدان المعركة ضد الثورة الجزائرية بقصد إفشالها وإلحاق الهزيمة بها. والتي نفدت في إطار ما يعرف بالحرب النفسية وكانت تعتمد في كلها الدعاية والتسميم، الاندساس والاختراق والتخريب من الداخل...

و إذا كان من الصعب تقديم تقدير كمي للنتائج المحققة من وراء النشاط النفسي الهدام للمكتب الخامس على المرأة الجزائرية، فإن الشيء المؤكد هو أن نشاط الثورة قد تأثر وتضرر كثيرا منه، تشهد بذلك العديد من الوثائق المسترجعة عن الثورة، والتي يمثل بعضها تقارير لمسؤولين بالقسمات والنواحي الذين ما فتئوا يشتكون من النشاط الهدام للفرق الطبية الاجتماعية المتنقلة ويطالبون بوضع حد لنشاطها.

و أخيرا، فإن النشاط النفسي للمكتب الخامس سيجد قيمته وتقييمه الحق من خلال تناول رد فعل الثورة الجزائرية على هذا النشاط وما فعلته للحيلولة دون وقوع الجزائرية فيه، وهو ما سنفرده بتناول مستقل.

قائمة المصادر والمراجع :

Archives du Service Historique de l'Armée de Terre, Château de Vincennes à Paris.

SHAT, 1H 2536/d.1, Constitution d'une organisation politique de base, (s. d.).

SHAT, 1H 2536/d.1, Conditions générales de l'Opération "Pilote", 24 Février 1957.

SHAT, 1H 2533/d.2, Note à l'attention de MM. les Officiers Itinérants au sujet de la réunion du 8 Janvier 1958, (1958).

SHAT, 1H 2460/d.1, Introduction à une étude sur l'intégration, suivi de quelques aperçus juridiques et sociologique sur les concepts d'assimilation et intégration, (Mai 1958 ?).

SHAT, 1H 2461/d.1, Action sur les milieux féminins en Algérie, Approuvé par le Général d'Armée Aérienne M. CHALLE Commandant en Chef les Forces en Algérie, le 27 mars 1960.

SHAT, 1H 2461/d.1, Action sur les milieux féminins en Algérie par les Équipes Médico- Sociales Itinérants, (présenté le 29 Août 1960 pour le Bulletin des F. O.).
SHAT, 1H 2468/d.1, Note pour l'emploi des Équipes Médico- Sociales Itinérantes, Alger, 24 Novembre 1957.
SHAT, 1H 2461/d.1, Action psychologique féminine, par Madame TOURNEMINE, Juin 1958, 8p.
SHAT, 1H 2568/d.1, lettre du Colonel GOUSSAULT aux EMSI, s. p. 87.186, 11 Juin 1958.
SHAT, 1H 2568/d.1, Lettre du Lt-Colonel FEAUGAS aux EMSI, s. p. 87.186, 20 Septembre 1958.
SHAT, 1H 2461/d.1, Étude des "Directives F. L N. ", 12/2/1959.

SHAT, 1H 2568/d.1, Lettre à Monsieur le Délégué Général du Gouvernement, objet: Équipes Médico- Sociales Itinérants, (s. d.), 3 p ;
SHAT, 1H 2568/d.1, Fiche à l'attention de Monsieur le Général Chef: Équipes Médico-Sociales Itinérants, Alger, 15 Février 1961, 3 p.
SHAT, 1H 2568/d.1, Note de service: Recasement des personnels des E.M.S.I., n° 0762/CSFA/EMI/ MOR, Alger, 20 Mars 1962.
- أرشيف ولاية ورقلة، رصيد ما قبل 1962، علبة رقم 134،
Note de service: Action à mener sur les femmes musulmanes au Sahara, n° 5928 CIS/DIR/PSY, Alger, 20 Août 1958, p.1

Publications à caractère documentaire:

Service de l'Information du Cabinet du Ministre de l'Algérie, Action du Gouvernement en Algérie: Mesures de pacification et réformes, op. cit., p. 139.
Délégation Générale du Gouvernement en Algérie, Rapport sur l'activité de l'administration en Algérie au cours de l'année 1959, Alger, Baconnier, 1960.

Journal Officiel de la République Française, n° 35, du 11 Février 1959, p. 1860